الفصل الثالث
سلطنة الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز[1] بن عبد الله المعزي نسبة إلى أستاذه المعز أيبك، هو الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية، تسلطن بعد خلع ابن استاذه الملك المنصور على ابن المعز أيبك في يوم السبت 27 ذي القعدة 657هـ / 15 أكتوبر 1259م، وذلك بعد أن عظمت الأراجيف بتحريك التتار نحو البلاد الشامية[2].

اتفق الحاضرون في مجلس خلع الملك المنصور على تولية قطز السلطنة في نفس الساعة وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر، لأنه كان كبير الأمراء المعزية والمتصرف الحقيقي في الأمور، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضى به الأمراء الكبراء وخوشداشيته[3]، ويعلق ابن تعزي بردي على ذلك بقوله: "والملك المظفر قطز هو أول مملوك خلع ابن استاذه من الملك وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك، وتمت هذه السُّنَّة السيئة في حاصد إلى يوم القيامة، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر[4]".

وكان بعض الأمراء الكبار قد خرجوا للصيد بالبندق، ولما قدموا إلى قلعة الجبل وعرفوا ما جرى أنكروا على قطز ما فعله من انقلاب على الملك المنصور وتسلطن مكانه، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة الشام ومصر، فسكتوا على مضض، ثم أعجلهم عن التدبير وقبض عليهم واعتقلهم وهم: الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير شرف الدين قيزان المعزي، وعز الدين أيبك النجيبي الصغير، وشمس الدين قرا سنقر المعزي، واعتقل أيضًا شمس الدين الدود خال الملك المنصور بن المعز، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي اللالا[5].

واستحلف الأمراء والعساكر وأظهر العزم، وفي خامس ذي الحجة 657هـ / 23 نوفمبر 1259م استوزر الصاحب زين الدين بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، وصرف تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، وعزل الأمير حسام الدين بن باذ عن وظيفة شاد

---

(1) معنى كلمة "قطز" هو "الكلب الشرس"، وهي مغولية أطلقها عليه من اختطفوه وباعوه، وربما كان تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم.
قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد 24، ص 41.

(2) النويري، نهاية الأرب، جـ29، ص 469؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص 417؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 72.

(3) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص 46.

(4) النجوم الزاهرة، جـ7، ص 56.

(5) نهاية الأرب، جـ29، ص 469؛ السلوك، جـ1، ص 418.

الدواوين[1] وولي الأمير نور الدين بن السديد، واستمر بالأمير فارس الدين أقطاي المستعرب على الأتابكية وفوض إليه أمر العساكر[2].

وعمل قطز على تخدير الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق حتى لا ينتهز الفرصة ويتخذها ذريعة لأخذ مصر، فكتب إليه كتابًا يترفق فيه ويقسم بالأيمان أن لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر ومتى حل بها أقعده على الكرسي، وقال فيه أيضًا: "وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار" فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز أطمأن[3].

أما عن أخبار المغول والتتار في أواخر هذه السنة فقد قدم هولاكو إلى البلاد شرقي الفرات ونزل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده سموط إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من هذه السنة (657هـ) وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين نائبًا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في باب إلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم فهرب الحلبيون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد وقد مات منهم البعض دهسًا في أبواب البلد، ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها الأمان[4].

حوادث وأخبار سنة 658هـ / 1260م

لما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق إلى برزة بالغوطة شمال دمشق وخيم عليها وقد ساده الاضطراب، وكان هذا في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدى التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة ونزل

---

(1) شد الدواوين وظيفة موضوعها أن يكون صاحبها رفيقًا للوزير متحدثًا من استخلاص الأموال وما في معنى ذلك، وعادتها إمرة عشرة.
القلقشندي، صبح الأعشى، جـ4، ص 22؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ2، ص 611-613.

(2) النويري، نهاية الأرب، جـ29، ص 469؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص 417-418.

(3) السلوك، جـ1، ص 418.

(4) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ3، ص 239-240.

معه ببرزة[1]، وكتب الناصر إلى الملك المغيث صاحب الكرك وإلي الملك المظفر قطز يطلب منهما نجدة[2].

ومع هذا فكانت نفس الناصر قد ضعفت وخارت وعظم خوف الأمراء والعساكر من هولاكو، فأخذ الأمير زين الدين الحافظي يعظم شأن هولاكو ويشير بأن لا يقاتل وأن يداري بالدخول في طاعته، فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وضربه وسبه وقال: "أنتم سبب هلاك المسلمين" وفارقه إلى خيمته، فمضى الزين الحافظي إلى الملك الناصر وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس، فلما كان الليل هجم طائفة من المماليك على الملك الناصر ليقتلوه ويملكوا غيره وكان في بستان، ففر هو وأخوه الملك الظاهر إلى قلعة دمشق، فبادر الأمراء القيمرية والأمير جمال الدين بن يغمور والأكابر إلى القلعة وأشاروا على الناصر أن يخرج إلى المخيم فخرج[3].

لما رأى الأمير بيبرس ومن معه من الأمراء البحرية ضعف وخذلان الملك الناصر عن ملاقاة العدو توجهوا إلى غزة واجتمعوا هم والأمراء الشهرزورية وكبيرهم الأمير نور الدين بدلان وأرسل بيبرس الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى السلطان الملك المظفر قطز يستأذنه في الحضور إلى خدمته –هو ومن معه– ويلتمس أيمانه لهم، فأجاب الملك المظفر إلى ما طلب، فتوجه من غزة بمن معه، وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم السبت 22 ربيع الأول 658هـ / 7 مارس 1260م، فركب الملك المظفر للقائهم، وأنزل بيبرس بدار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها لخاصه، فأشار عليه بحرب التتار وقوّى عزمه على ذلك[4].

ونعود إلى أخبار التتار فبعد اسقاطهم للخلافة في بغداد تدفقت قواتهم من أذربيجان وكردستان على الجزيرة، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة، ومن هناك اتجهت صوب حلب[5]، وقد رفض نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين الاستسلام لهم، فاقتحموا المدينة يوم الأحد 9 صفر 658هـ / 25 يناير 1260م واستولوا

---

(1) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ 3، ص 240.

(2) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 419.

(3) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 419.

(4) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 471؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 419–420؛ أبو الفدا، المختصر، جـ 3، ص 240؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 49.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 30.

عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلًا وأسرًا[1]، ثم حاصروا قلعة حلب ثم سلمت بالأمان بعد شهر في يوم الأثنين 9 ربيع الأول / 25 فبراير[2].

وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب في بقية أنحاء الشام، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولاكو، في حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار[3]، وكان الملك المنصور صاحب حماه قد فر منها والتجأ إلى الناصر يوسف وصحبه في فراره إلى غزة، فقرر كبراء حماة تسليم البلد لهولاكو فذهبوا إليه ومعهم مفاتيح حماة وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم فأمنهم[4]، أما عن دمشق فقرر أهلها التسليم لهولاكو، وكان رسل التتار بقرية حرستا فأدخلوا دمشق ليلة الأثنين سابع عشر صفر، وقرئ بعد صلاة الظهر فرمان جاء من عند هولاكو ملك التتار يتضمن الأمان لأهل دمشق وما حولها، وشرع الأكابر في تدبير أمرهم، ثم وصلت التتار إلى دمشق في سابع ربيع الأول / 4 مارس 1260م، فلقيهم أعيان البلد أحسن ملتقى وقرئ ما معهم من الفرمان المتضمن الأمان[5].

أما الملك الناصر صاحب الشام فواصل مسيره من غزة إلى مصر فنزل بالعريش ثم قطيا بعد أن تفرق عسكره عنه وتوجه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال، فلما وصل الناصر إلى قطيا عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفر صاحب مصر، ونزل بوادي موسى ثم نزل بركة زيزاء بالبلقاء، فكبسه التتار بها وهو في خواصه وقليل من مماليكه، فاستأمن الناصر من التتار وتوجه إليهم، فلما وصل إليهم احتفظوا به وبقي معهم في ذل وهوان إلى أن قتل[6].

معركة عين جالوت

كان الملك المظفر قطز سلطان مصر يتهيأ للقاء التتار، فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية ألقى الله تعالى في قلب قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيست

---

(1) أبو الفدا، المختصر، جـ3، ص 240-241.
(2) المختصر، جـ3، ص 242.
(3) العصر المماليكي، ص 242.
(4) المختصر، جـ3، ص 241.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 76.
(6) النجوم الزاهرة، جـ7، ص 77.

من النصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنهم ما قصدوا إقليمًا إلا فتحوه ولا عسكرًا إلا هزموه، ولم يبق خارج عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن، وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة إلى اليمن والحجاز، والباقون بقوا في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد[1].

وعمل هولاكو –كعادته– على تحطيم الروح المعنوية لحكام وأهل البلاد التي يفتحها هو أو قادة جيوشه تباعًا، وأخيرًا جاء الدور على مصر، فوصلت رسله برسالة تخويف وبث الرعب لينهزم ملكها وجيشها وشعبها معنويًا فيستسلمون، ونص هذه الرسالة البليغة التي أرسلها كتبها بالتأكيد أحد أدباء العرب في بلاطه هي ما يلي:

"من ملك الملوك شرقًا وغربًا القان الأعظم. باسمك اللّهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا وسلَّطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطا، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم؟، وأي طريق تنجيكم؟، وأي بلاد تحميكم؟، ما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفّون عند الكلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 77-78.

فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة، والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل.

فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًّا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهنون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، ولمن أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هلاون قد أتى ... بحد سيوف تُنتضى وبواتر

يصير أعز القوم منا أذلة ... ويلحق أطفالًا لهم بالأكابر[1]

فجمع قطز الأمراء واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية، فقبض على الرسل واعتقلوا، وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء وأمر بالمسير والأمراء غير راضيين بالخروج كراهة في لقاء التتر[2] نظرًا لما رسخ في أذهانهم من الخوف والرعب لنجاح الحرب الدعائية التي بثها التتار في البلاد كلها، وفوض قطز الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب في نيابة السلطنة وإدارة البلاد في غيابه[3].

فلما كان يوم الأثنين 15 شعبان 658هـ / 27 يوليو 1260م خرج الملك المظفر قطز بجميع عساكر مصر ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل يريد الصالحية[4]، وكان يصحب قطز من الملوك الأيوبية الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل علي[5].

---

(1) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ8، ص 47-48؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ8، ص 63-64؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص 427-429.

(2) السلوك، جـ1، ص 429.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 78.

(4) ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 49؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص 429.

(5) أبو الفدا، المختصر، جـ7، ص 245.

كما راسل المظفر قطز الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص – وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب – وفوض إليه نيابة الشام أجمع وحلب وغير ذلك، كما راسل الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل – وكان قد أخذ من هولاكو فرمانًا بالصبيبة وبانياس وهما قلعتان تقعان بالقرب من دمشق، وسألهما الملك المظفر قطز في رسالتيه إليهما المظافرة والمعاونة على حرب العدو وأن تكون الكلمة واحدة[1].

فتوجه رسوله، واجتمع بالملك السعيد فسبه وسب من أرسله وقال: من هو الذي يوافق هذا الصبي أو يدخل في طاعته أو ينضم إليه؟! ونحو هذا من الكلام. ففارقه وتوجه إلى الملك الأشرف، فخلا الأشرف بالرسول وقبّل الأرض بين يديه تعظيمًا لمرسله وأجلسه مكانه على مرتبته وجلس بين يديه وسمع رسالته وقال له: قبّل الأرض بين يدي مولانا السلطان الملك المظفر وأبلغه عنى أنني في طاعته وموافقته وامتثال أمره، والحمد لله الذي أقامه لنصرة هذا الدين، ووعد أنه إن حضر المصاف (المعركة) مع التتار انهزم بهم، إلى غير ذلك، وأعطى الرسول ذهبًا جيدًا واعتذر إليه، فعاد الرسول وأبلغ الملك المظفر عن كل من الملكين ما قاله له فعامل كلا منهما عند ظفره بما نذكره[2].

وفي يوم خروج قطز بالجيش أحضر رسل التتر وكانوا أربعة[3]: فوسط واحدًا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وطافوا برؤوسهم في أسواق وشوارع القاهرة، ثم علقت على باب زويلة، وهذه الرؤوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتار، وأبقى المظفر قطز على صبي من الرسل وجعله من جملة مماليكه[4].

ونودى في القاهرة ومصر والفسطاط وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ، وأمر سائر الولاة بإخراج الأجناد للجهاد بسرعة وعقاب من تقاعس منهم، وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر[5].

---

(1) النويري، نهاية الأرب، جـ29، ص 473.

(2) النويري، نهاية الأرب، جـ29، ص 473.

(3) ذكر ابن أيبك الدواداري أن عدد الرسل الذين أرسلهم هولاكو كانوا نيفا وأربعين نفرًا، وفي ذلك مبالغة واضحة. كنز الدرر، جـ8، ص 48.

(4) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 50؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص 429.

(5) السلوك، جـ1، ص 429.

وفي الصالحية اجتمع السلطان قطز بأمرائه وحثهم على استكمال المسير لملاقاة العدو، فأبوا معظمهم وطلبوا البقاء بها والملاقاة بها، فهب فيهم صائحًا: "يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين" فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع[1].

فلما كان في الليل ركب السلطان وحرك كوساته[2] وقال: "أنا ألقى التتار بنفسي" فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره، وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة[3]، وكان كتبغا قائد جيوش التتار قد أقام قوة من التتار تحت قيادة بيدرا، وقد أرسل إلى كتبغا الذي كان عندئذ في بعلبك يعلمه بوصول مقدمة الجيش المملوكي ويطلب منه النجدة، لكن كتبغا رد عليه قائلًا "قف مكانك وانتظر" وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلي عنها لحين وصول الإمدادات إليه، على أن المماليك فوتوا على التتار غرضهم وبادروهم بالهجوم وهزموهم واحتلوا غزة، وطاردوا بيدرا بما بقي من الحامية التي معه حتى نهر العاصي[4].

ثم نزل السلطان قطز بالعساكر إلى غزة وأقام بها يومًا ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا، وكان قد استأذن حكومتها الصليبية في السماح للجيش بعبور الأراضي الصليبية لمحاربة التتار فوافق الصليبيون على ذلك الطلب[5]، بل إنهم في عكا خرجوا إليه بالتقادم والهدايا وعرضوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[6].

---

(1) السلوك، جـ 1، ص 429.

(2) الكوسات هي من رسوم الملك وآلاته وهي عبارة عن صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وشبابة يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة العشاء الآخرة، ومرة قبل التسبيح على الموادن، وتسمى الدورة بذلك في القلعة، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خامه.
القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 4، ص 9.

(3) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 429-430.

(4) الهمذاني، جامع التواريخ، جـ 1، ص 313.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ 2، ص 1135-1136.

(6) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 430.

واجتمع قطز بالأمراء وحضهم على قتال التتار وذكرهم بما وقع منهم بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام منهم ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد[1].

ثم أمر أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس بقطعة من العسكر لمقابلة طليعة حيش التتار، فسار وقابلهم وكتب إليه يعلمه بذلك، وأخذ في مناوشتهم فتارة يقدم وتارة يحجم إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت من أرض كنعان (فلسطين) بالقرب من بيسان مدينة غور الشام[2].

أما عن الجانب التتري وصل قائد جيوشهم كتبغا ليقود المعركة[3] وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب[4]" من طليعة جيشه الذي انهزم من أمام بيبرس.

والتقوا واقتتلوا في يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ / 3 سبتمبر 1260م بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل، وثبت الملك المظفر أحسن ثبات، قال النويري: "حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال: كنت خلف السلطان الملك المظفر لما التحم القتال ووقعت الصدمة الأولى، فاضطرب جناح عسكر السلطان وتتعتع طرف منه، فلما رأي الملك المظفر ذلك رمى خوذته عن رأسه وصاح: وا إسلاماه! وحمل، فأعطاه الله النصر وكانت الدائرة على التتار وأخذهم السيف والإسار، وقتل كتبغا نوين فيمن قتل، وانهزم من سلم من

---

(1) السلوك، ج 1، ص 430.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 474؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 245؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 430؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 79.

(3) ترك هولاكو حلب وعاد إلى بلاده عندما علم بوفاة أخيه منكوخان خاقان المغول العظيم الذي توفى من شهر شعبان 657هـ/ أغسطس سنة 1259م، مما أثار نزاعًا بين اخوته حول اقتسام امبراطورية المغول الواسعة، فأسرع هولاكو إلى قراقورم حاضرة التتار في جنوب آسيا تاركًا قيادة جيوشه لقائده كتبغا، وكان لعودة هولاكو بجزء كبير من جيشه أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي أخذ السلطان قطز يعد عدته لمواجهة خطرهم.

سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 32.

(4) الهمذاني، جامع التواريخ، ج 1، ص 313.

التتار لا يلوون على شيء، وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ممن شهد هذه الواقعة وأبلى يومئذ بلاءً حسنًا[1].

وقال ابن تغري بردي: "وولوا التتار الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الوقعة، فأحدقت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلًا، ونجا من نجا، وتبعهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في جماعة من الشجعان إلى أطراف البلاد، واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار آثارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جدًا[2]".

بينما قال المقريزي: "ومر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافًا ثانيًا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل السلمون زلزالًا شديدًا، فصرخ السلطان صرخة عظيمة سمعه معظم العسكر وهو يقول: "وا إسلاماه" ثلاث مرات، "يا الله انصر عبدك قطز على التتار". فلما أنكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ومرّغ وجهه على الأرض وقبلّها وصلى ركعتين، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم[3]".

وكان ممن أسر من التتار في وقعة عين جالوت "كتبغا المنصوري" وهو يومئذ شاب، وهو الذي ملك الديار المصرية بعد ذلك في سنة 694هـ / 1295م ولقب بالعادل[4].

---

(1) نهاية الأرب، جـ29، ص 474؛ السلوك، جـ1، ص 430-431؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 49-50؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 79؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 51.

(2) النجوم الزاهرة، جـ7، ص 79-80.

(3) السلوك، جـ1، ص 431.

(4) النويري، نهاية الأرب، جـ29، ص 475.

*ومن الطرائف التي أوردها المؤرخون نقلًا عن المؤرخ شمس الدين الجزري عن كتبغا "أن هولاكو لما استولى على حلب وملك الشام أجمع وعزم على تجريد العساكر إلى الديار المصرية أحضر نصير الدين الطوسي العالم الفلكي الكبير الذي كان له مكانة مرموقة عند هولاكو وقال له: تكتب أسماء مقدمي عساكر وتنظر أيهم يملك مصر ويجلس على تخت السلطنة بها، فكتب أسماءهم وحسب ودقق النظر فما ظهر له أنه يملك الديار المصرية إلا كتبغا، فذكر ذلك لهولاكو".

النويري، نهاية الأرب، جـ31، ص 284؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص 55-56.

**ولكن ينقض هذه الرواية أن كتبغا كان يؤمئذ صغيرًا في السن ولم يكن من المقدمين.

وقد عبر قاسم عبده قاسم بعبارة بليغة عن نتيجة هذه المعركة فقال: "وكانت معركة عين جالوت التي جرت يوم 25 رمضان 658هـ / 3 سبتمبر 1260م واحدة من المعارك الفاصلة في تاريخ المنطقة العربية بأسرها من ناحية، كما كانت بمثابة تأكيد الوجود العسكري والسياسي لدولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى، وإذا كانت معركة المنصورة قبل عشر سنوات بمثابة صرخة الميلاد التي أعلنت عن قيام دولة سلاطين المماليك، فإن معركة عين جالوت كانت شهادة الميلاد الرسمية لهذه الدولة[1]".

ومما يجدر ذكره هنا أن ابن أيبك الدواداري روى لنا رواية لمملوك حضر هذه المعركة، وهذا المملوك هو صارم الدين أزبك بن عبد الله الأشرفي الذي كان أسيرًا لدى المغول عندما غزا هولاكو بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش المغول وحارب ضمن صفوف هذا الجيش في معركة عين جالوت حيث قال: ".. ولما قدمت الشام وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية، وقد خرج المسلمون للقائهم، فلما علمتُ أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية بعثت غلامًا لي في صفة جاسوس وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقداري وبلبان الرشيدي وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرفهم أن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يراعي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، فلما وصل غلامي إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفًا عظيمًا، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم وعرّفهم ما أوصيتهم به، وكنت قلت في كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، ها أنا وأصحابي والملك الأشرف ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان، فلما سمع الأمراء كلام غلامي قال بعضهم لبعض: لا يكون هذا معمولية على المسلمين. فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت طلعت الشمس علينا وظلت عساكر الاسلام، وكان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة، وأشرفت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد بُهت هو التتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم

[1] عصر سلاطين المماليك، ص 65.

وهم ينحدرون من الجبل، وقال لي: يا صارم هذا رنك (شعار) من؟ قلت: بلبان الرشيدي، ثم تتابعت الأطلاب أولًا فأولًا وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات والطبلخانات، وامتلأ الوادي والبر من العياط، وجاءت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب، وكنت غرًّا لا أعرف رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني: هذا رنك من؟ فصرت أي شيء على لساني قلته، ثم إن التتار انحازوا إلى الجبل، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون، ولكن قتل الجميع، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيمًا بدمشق أو حلب[1]". وأنا أعتقد بصدق هذه الرواية التي تتفق مع رد الملك الأشرف موسى لرسول أيبك.

ومن الروايات المتعلقة بهذه المعركة والتي اعتدنا قراءتها عن المؤرخ ابن أيبك الدواداري والتي تتعلق بجده وأبيه، نقل فيما يزعم عن جده لأمه بلجك قال: "لم نزل معتقلين بالقلعة إلى أن أخرجنا الملك المظفر عند خروجه إلى التتار، فكنت في هذه الغزاة المباركة، وكان قد قفز من التتار إلى السلطان شابًا من المغل، فقربه السلطان، وأنعم عليه وجعله سلاح دارًا، فلما كان يوم المصاف والتحم القتال، ضرب ذلك الشاب السلطان بسهم، فلن يخطئ الجواد لسعادة الاسلام ونصرة أمة النبي عليه السلام، فوقع السلطان إلى الأرض، وقتل ذلك الشاب، وعاد السلطان راجلًا والناس قد اشتغلوا بقتل ذلك الملعون الذي أراد هلاك السلطان. قال: فنزل فخر الدين ماما عن جواده وقدمه للسلطان فامتنع عن الركوب، فقال له الأمير فخر الدين: ياخوند اركب فما هذا وقت امتناع، فقال السلطان: تقتل يا فخر الدين. فقال: إذا قتلت أنا كنت واحد من المسلمين وكان عوضي كثير، وإذا قتلت أنت في هذا الوقت فمالك عوض وقتل المسلمين كلهم.

فركب ثم التقت الجنائب والوشاقية[2] فركب فخر الدين من جنايب السلطان. فلما انكسر التتار قال للسلطان بعض خواصه عن امتناعه عن الركوب في ذلك الوقت: يا خوند لو صدقك –والعياذ بالله– في ذلك الوقت الذي أنت فيه راجل بعض المغل كنت رحت

---

[1] كنز الدرر، جـ8، ص 53-54.

[2] الجنائب هي الخيول السلطانية، والوشاقية هم السياس.

وراح الاسلام لرواحك. فقال: أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه، فقد مات السلطان الملك الصالح رحمه الله وقتل ابنه المعظم والأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العسكر وبعد ذا نصر الله الاسلام بغير ملك بعد اليأس[1]".

ولما تمت الهزيمة على التتار جاء الملك السعيد ابن الملك العزيز إلى السلطان الملك المظفر مستأمنا، وكان شهد الوقعة مع التتار منحازًا لهم محاربًا في صفوفهم، فترجل عن فرسه وتقدم إلى السلطان ليقبل يده، فضربه برجله على فمه فأدماه، وجاء أحد سلاح دارية السلطان فضرب عنقه، وفعل ذلك به مؤاخذة له على جوابه الذي سبق ذكره لرسول السلطان والخيانة وفسقه حسبما روي النويري وأبو الفدا[2]، أما بيبرس الدوادار فقال: "وأحضر إلى المظفر مستأمنًا فقال له: كان هذا يكون لو حضرت قبل الوقعة وأما الآن فلا، وأمر به فقتل صبرًا[3]".

أما الملك الأشرف موسى صاحب حمص والذي سبق أن أحسن استقبال رسول الملك المظفر له ووعده بمفارقة التتار في المعركة، فقد كان صحبة التتار في المعركة، وبالفعل فارقهم بمن معه مما أثر في معنوياتهم، وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه وأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها[4].

كما أحسن المظفر قطز كذلك إلى الملك المنصور صاحب حماه وأقره على حماه وعلى بارين وأعاد إليه المعرة[5].

وورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشرين رمضان المذكور، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار إلى القاهرة، ففر الأمير زين الدين الحافظي أحد عملائهم كما فر نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم، وكانت مدة استيلاء التتار على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام[6].

وفي يوم الأحد المذكور نزل السلطان على طبرية وكتب إلى دمشق وبشر الناس بفتح الله له وخذلانه التتر، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق، فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورًا

---

(1) ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 50؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 431.
(2) النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 475؛ أبو الفدا، المختصر، جـ 3، ص 245.
(3) زبدة الفكرة، ص 51.
(4) أبو الفدا، المختصر، جـ 3، ص 245.
(5) نفسه؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 433.
(6) السلوك، جـ 1، ص 432.

كثيرًا[1]، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوها ما قدروا على تخريبه انتقامًا منهم لما فعلوه أيام احتلال التتار لدمشق، فقد كان النصارى بدمشق في أيام التتار قد استطالوا على المسلمين ومدوا ايديهم وبسطوا ألسنتهم فيهم، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا الصليب وشربوا الخمر في الطرقات ورشوه على المسلمين، فلما اتصل خبر النصر بالمسلمين ثار جماعة من العوام وأخربوا كنيسة مريم وكانت كنيسة عظيمة في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف، وأقاموا كذلك إلى أن وصل الأمير جمال الدين أقش المحمدي بكتاب السلطان الملك المظفر يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ودخل دمشق ونزل دار السعادة، وسكن الناس وطمنهم[2].

وفي يوم الأربعاء آخر شهر رمضان وصل الملك المظفر بعساكره إلى ظاهر دمشق بالجسورة وخيم بها، وعيد عيد الفطر، ثم دخل إلى دمشق في ثاني شوال ونزل بقلعة دمشق وملك البلاد[3].

وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار[4] الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر، وفي هذه النصرة وقدوم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلك الكفر في الشام جميعًا ... واستجد الإسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر الملك الأر ... وع سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعزم وحزم ... فاعتززنا بسمره وبيضه

أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائمًا مثل واجبات فروضه[5]

وفي نصرة الملك المظفر هذا يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه

---

(1) السلوك، جـ 1، ص 432.

(2) أبو الفدا، المختصر، جـ 3، ص 244-245؛ النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 432؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 80-81؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 432؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ 8، ص 52-53.

(3) نهاية الأرب، جـ 29، ص 476؛ السلوك، جـ 1، ص 432.

(4) الطبردار معناها ممسك الطبر والطبر بمعنى الفأس، وكان مهمته أن يحمل الطبر حول السلطان عند ركوبه في المواكب وغيرها لحراسته. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 4، ص 22؛ جـ 5، ص 458، 462.

(5) المختصر، جـ 3، ص 246؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 51؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 52.

بالشـــام أهلكهـــم وبـــدّد شـــملهم ولكـــل شيء آفـــة مـــن جنســـه[1]

وقال جمال الدين ابن مصعب:

إن يـــوم الحمـــراء يـــوم عجيـــب فيـــه ولى جـــيش الطغـــاة البغـــاة

دار كـــأس المنـــون لمـــا مزجنـــا عـــين جـــالوت بالـــدما للســـقاة

ياهلـــا جمعـــة غـــدا المغـــل فيهـــا سُـــجَّدًا للســـيوف لا للصـــلاة[2]

واستولى الملك المظفر على سائر بلاد الشام كلها من الفرات إلى حد مصر[3]، وأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه اقطاعات الشام، ورتب النواب في الممالك الشامية، فكان أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك[4]. ففوض نيابة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي وجعل معه الأمير فخر الدين أبا الهيجاء عيسى بن خشترين الأزكشي الكردي، وأقر الملك الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته بحمص والرحبة وتدمر، وبعث الملك المظفر بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى حلب نائبًا بها ونعته بالملك السعيد حتى لا يشاركه النعت، وأقر الملك المنصور بن الملك المظفر على مملكته بحماه وبارين وأعاد عليه المعرة وكانت بيد الحلبيين من سنة 635هـ / 1238م وأخذ سلمية منه وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، ورتب الأمير شمس الدين أقوش البرلي أميرًا بالساحل وغزة ومعه عدة من العزيزية، وكان قد فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه المظفر قطز وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت[5].

وثار عدة من الأوشاقية[6] مماليك السلطان بالنصارى ونهبوا دورهم ومعهم عدة من عوام دمشق، فشنق منهم نحو ثلاثين نفسًا، وأمر أن يقرر على نصارى دمشق مائة وخمسون

---

(1) ابن أيبك الدوادراي، كنز الدرر، جـ8، ص 51؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 82.

(2) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ8، ص 51.

(3) المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 433؛ النويري، نهاية الأرب، جـ 29، ص 476؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 51.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 83.

(5) النويري، نهاية الأرب، جـ29، ص 476-477؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 433.

(6) الأوشاقية أو الأوجاقية هم الذين يتولون رعاية الخيل للتسيير والرياضة. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص 454.

ألف درهم، فجمعوها وحملت إلى السلطان بسفارة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أتابك العسكر[1].

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق في شوال بأن المنهزمين من رجال التتار ونسائهم لحقهم الطلب من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فإن بيبرس كان تقدم قبل السلطان إلى دمشق يتتبع آثار التتار إلى قرب حلب، فلما قرب منهم بيبرس سيَّبوا ما كان في أيديهم من أسارى المسلمين، ورموا أولادهم فتخطفهم الناس، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه[2].

وعلق أ.د قاسم على مكاسب معركة عين جالوت بقوله: "وهكذا توطدت أركان دولة سلاطين المماليك بإعتبارها القوة الإقليمية الكبرى في المنطقة العربية، كما تم توحيد مصر والشام تحت حكمها في خضم الصراع ضد المغول؛ ذلك أن انتصار الجيش المملوكي في عين جالوت أنهى المقاومة الأيوبية لحكم السلاطين المماليك إلى الأبد، كذلك فإن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أعاد الخلافة العباسية بالقاهرة مما جعل هذه المدينة العاصمة السياسية والعسكرية والثقافية للعالم العربي على ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان[3]".

استشهاد السلطان الملك المظفر قطز

لما رتب قطز أحوال النواب والولاة والشامين ببلاد الشام خرج من دمشق يوم الثلاثاء 26 شوال 658هـ / 5 أكتوبر 1260م يريد مصر بعد ما كان قد عزم على المسير إلى حلب، فثناه عن ذلك ما بلغه من تنكر الأمير ركن الدين ببرس وجماعة من الأمراء البحرية عليه وأنهم يضمرون له شرًّا، فقد قال القاضي عز الدين ابن شداد في تاريخه "أن الملك قطز لما ملك دمشق كان عازمًا على التوجه إلى حلب ليكشف أحوالها ويزيح أعذارها من خراب التتار، فوشي إليه واشٍ أن الأمير ركن الدين البندقداري مع جماعة من الأمراء البحرية متنكرين له ومتغيرين عليه، فصرف وجهه إلى ناحية الديار المصرية وهو أيضاً مضمر لهم الشر، وربما أسرّ ذلك لبعض خواصه، فبلغ ذلك الأمير ركن الدين البندقداري فخرجوا من دمشق وكل واحد منهما متحرز من صاحبه[4]".

---

[1] السلوك، جـ 1، ص 433.

[2] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 82.

[3] عصر سلاطين المماليك، ص 72.

[4] ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 60.

وقد ذكر لمؤرخون ثلاث روايات عن سبب تآمر بيبرس والمماليك البحرية لقتل السلطان قطز، فأول هذه الروايات هي رواية بيبرس الدوادار – وهو أقربهم إلى الحدث، وبحكم ما وصله من ومكانه في الدولة بعد ذلك تتيح له التعرف على كثير من الأسرار تقول: ".. وذلك أنه (يقصد قطز) رحل من دمشق عائدًا إلى الديار المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلهما الفارس أقطاي واستبدادهما بالملك، والجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها، والمشقات التي لبسوها، وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي[1]

وهذا السبب هو الأكثر منطقية من بين روايات المؤرخين.

أما **الرواية الثانية** فأوردها المقريزي وابن تغري بردي، وغالبًا ما نقلوها عن ابن واصل فتقول أن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر أن يوليه نيابة حلب وأعمالها فوعده بذلك ثم تراجع في وعده وولاها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس وبين الملك المظفر[2].

أما **الرواية الثالثة** فأوردها ابن أيبك الدواداري الذي يغلب على تاريخه الجانب القصصي والروائي أكثر من الحقائق التاريخية المجردة فتقول: "وحكى لي والدي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– عن مخدومه الأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام تنمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم وشتمهم وتوعدهم، فأضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الحقايد الضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة[3]".

فاحترس كل منهما من الآخر، وصمم بيبرس على الانتقام من قطز، فدبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لقتله في أول فرصة مناسبة، ولمرارة ذكرى تشردهم في البلاد والمحن والشدائد التي تعرضوا لها لقي اقتراح بيبرس بالتخلص من قطز هوى وقبول في نفوسهم.

---

(1) زبدة الفكرة، ص 53.

(2) السلوك، جـ 1، ص 434؛ النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 82، 101.

(3) كنز الدرر، جـ 8، ص 60.

وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية بالشرقية في طريقه إلى القاهرة، ذلك أن قطز أظهر رغبته في الصيد، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار، فأجابه إلى ما طلبه وأنعم عليه بما أراد، وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان، وكانت هذه إشارة بينه وبين شركائه المتآمرين، فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة في حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه، وكان ذلك يوم السبت 15 ذي القعدة 658هـ / 23 أكتوبر 1260م، وكانت مدة ملكه سنة واحدة إلا اثنا عشر يومًا[1].

وحكى في كيفية قتله عدة روايات تاريخية من الصعب اثباتها، فقال أبو الفدا: "وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة، وقد سبق الدهليز والعسكر فبينما بيبرس يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها وساق (بيبرس وانص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي والهاروني وعلم الدين صغن أغلى) معه، فلما بعدوا تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في انسان فأجابه إلى ذلك، فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها، فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحي حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب[2]".

وتقترب **رواية بيبرس الدوادار** من رواية أبو الفدا وهي تقول: "واتفق أنه – أي قطز – انفرد عن الموكب لتصيد الأرانب، وساق خلف أرنب عرض له وهم يرمقونه، فلما رأوه قد بعد عن الأطلاب ساقوا في أثره ركضا، وجاءوا يتلوا بعضهم بعضًا، فتقدم إليه أنص الاصفهاني كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن البندقداري لأنه قام في خدمته مدة ولم تعين له، وخرج إلى الغزاة برمحه، وبذل فيها نصحه، فأجاب المظفر إلى سؤاله، ووعده بإصلاح حاله، فأهوى إلى يده يقبلها فأمسكها، فضبطها ضبطًا شديدًا، وعلاه الأمير ركن الدين البندقدارى بسيفه، ثم اجتمعوا على من يملك، وأعرضوا ذلك على الأمراء ،فاستعف كل منهم واستقال، وأحجم عن الموافقة وسماع المقال، فعند ذلك تقدم الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب وقال: من هو قتل المظفر بسيفه؟ فقالوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري؛ فقال: هو أحق بالملك وأولى، فوافقه الأمراء على ذلك، وأجلسوا المشار إليه[3]".

---

[1] المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 435؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 83-84؛ أبو الفدا، المختصر، جـ 3، ص 247.

[2] المختصر، جـ 3، ص 247.

[3] زبدة الفكرة، ص 54.

أما **رواية ابن أيبك** فهي –كعادته– يغلب عليها تفاصيل كثيرة في الوصف وفي الحوارات والفن القصصي فتقول: "وذلك لما وصل السلطان المرحوم الشهيد سيف الدنيا والدين قطز إلى منزلة القصير ثار قدامه أرنب فساق عليه وأرماه، وتبعوه الأمراء المذكورون، وسبق الأمير عز الدين أنس (أنص) إلى الأرنب وحصلها، فأعجب السلطان منه ذلك، كون هذا الأمير سبق إلى صيده، وترجل عن فرسه وحصله، فقال له: اسأل ما تريد يابيك إذا دخلنا مصر. فقال: ياخوند، الجارية التي أخذها السلطان من سبى التتار، فقال: نعم وعلىّ جهازها. فباس الأرض وتقدم ليقبل يد السلطان فمسك قائم سيفه مع يده، وكانت هذه هي الاشارة بينهم، فبادره بكتوت الجولندار وضربه على عاتقه حلّه، ثم ثنى عليه أنص فأرماه عن فرسه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم فقتله، وعجل الله بروحه إلى عليين، وعوضه عن ملكه بملك جوازه الحور العين، وذلك يوم السبت سادس عشر ذي القعدة، وقيل إن أول من ضربه كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وهو الصحيح والله أعلم. ثم توجهوا إلى الدهليز واجتمعوا، فتقرر الأمر للأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بعد محاورات كثيرة، فكان أول من تقدم وبايعه الأمير فارس الدين أتابك، ثم الأمراء على طبقاتهم، ولقب الملك الظاهر[1]".

أما **رواية النويري** فتقول "وحكى في كيفية قتله أنه كان قد تغير خاطره على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما تقدم الأمراء إليه سأله الأمير بدر الدين أنص الرضا عن الأمير ركن الدين، فقال: قد رضيت عنه، فترجل الأمير ركن الدين ليقبل يده، فلما تناولها قبض عليها وجذبه عن سرجه، وبدره أولئك الأمراء بالضرب فقتلوه – رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى–. ويقال: إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله: الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي والأمير سيف الدين بهادر المعزي خوشداشه والأمير بدر الدين بكتوت الجوكان دار المعزي والأمير سيف الدين بيغان الركني والأمير سيف الدين بلبان الهاروني[2]" إلى جانب بيبرس وأنص.

وقال النويري أيضًا: "وكان الملك الظاهر يدعي أنه هو الذي قتله بيده، وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله وإنما كان يدعي ذلك افتخارًا، وقد نُقِلَ أن الملك الظاهر لما قبض على يده ضربه الأمير بكتوت الجوكان دار على عاتقه بالسيف فأبانه، وألقاه الأمير بدر الدين أنص عن

---

[1] كنز الدرر، جـ8، ص 61-62.

[2] نهاية الأرب، جـ29، ص 478.

فرسه، ثم رماه الأمير سيف الدين بهادر المعزي بسهم أتى على روحه –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى–[1]".
وقد ذكر المقريزي مثل هذه الفقرة[2].

ودفن قطز عندما قتل القصير التي تقع على بعد مرحلة من الصالحية، ثم حمل بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين رجب الشيرازي، قبل أن تعمر، وهي التي تقع أسفل القلعة بسكة المحجر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريبًا من زاوية ابن عبود[3].

وهكذا حل القاتل محل القتيل ببساطة شديدة، وانتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك، بل أن أتابك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له: ياخوند اجلس أنت في مرتبة السلطنة، وهكذا ترسخ مبدأ "الحكم لمن غلب"، وترتب على هذه المأساة تكريس القوة والدماء سبيلًا إلى السلطة والعرش، وكانت تلك هي "سُنّة المماليك في دولتهم" ولم يحدث طوال مائتي وسبعين عامًا هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلًا[4].

الروايات والحكايات المتعلقة بقطز

اعتاد المؤرخون نسج روايات شيقة يحشوها بكتبهم التاريخية حتى لا يمل القارئ من سرد التاريخ الجاف، ومن هذه الروايات رواية عن أصل السلطان قطز ذكرها لنا المؤرخ النويري فقال: "حكى أنه كان من أولاد الملوك الخوارزمية، وأنه محمود بن ممدود، ابن اخت السلطان خوارزم شاه، وإنما أبيع لما استولى التتار على البلاد وملكوا ملك الخوارزمية وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان وكان هو ممن أسر وأبيع، وقد كان هو يصرح بذلك –فيما حكى عنه– ويستكتم من يحكيه له[5]".

وقد نقل الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه "حوادث الزمان وأنبائه" أن والده أخبره أن الحاج علي الفراش أخبره قال: "لما كان قطز في رقّ ابن الزعيم بدمشق –وكان سكنه

---

(1) نفسه.
(2) السلوك، جـ 1، ص 435.
(3) السلوك، جـ 1، ص 435.
(4) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 81.
(5) نهاية الأرب، جـ 29، ص 479.

بالقصاعين- غضب عليه في بعض الأيام فلطم وجهه ولعنه ولعن والديه وجده. قال: فبكى قطز بكاءً شديدًا وجعل ينتحب طول نهاره وامتنع عن الأكل، وركب استاذه بعد صلاة الظهر إلى الخدمة فقال لي: استرضه وأطعمه واعتبه على بكائه. قال الفراش: فجئت إليه وجعلت ألومه على بكائه من لطمة واحدة، فكيف لو ضربت ألف عصاة أو دبوس أو جُرحت بسيف؟! فقال: والله ما بكائي وغيظي من أجل لطمة وإنما كونه لعن أبي وأمي وجدي. فقلت له: ومن أبوك من وجدك وأمك؟ فقال: والله أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه وجدي خير من جده. فقلت له: أنت مملوك تركي كافر ابن كافر. فقال ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود، ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك. قال: فسكتُّ عنه وطايبته. وتقلبت به الأحوال إلى أن ملك الديار المصرية والشام، ولما ملك دمشق أحسن إلى الحاج علي الفراش المذكور وأعطاه خمسمائة دينار، ورتب له راتبًا جيدًا[1]".

ومن الحكايات الأخرى قال الجزري أيضًا: "حكى لي الحاج أبو بكر ابن الدريهم الأسعري والحاج زكي الدين إبراهيم الجزري المعروف بالجبيلي استاذ الفارس أقطاي قالا: كنا عند الأمير سيف الدين قطز في أول دولة استاذه الملك المعز، وقد حضر عنده منجم ورد من بلاد المغرب وهو موصوف بالحذق في علم الرمل والفلك، فأمر قطز أكثر من عنده من حاشيته بالانصراف فانصرفوا، وهممنا بالقيام فأمرنا بالجلوس فجلسنا، وما ترك عنده إلا من يثق به من خواصه، وقال للمنجم: اضرب الرمل، ففعل وحدثه بأشياء كثيرة مما كان في نفسه. وكان آخر ما قال له: اضرب وانظر من يملك بعد أستاذي ومن يكسر التتار؟ فضرب وحسب حسابًا طويلًا، وبقى يفكر ويعد أصابعه وقال: قد طلع معي خمس حروف بغير نقط وأبوه أيضًا خمس حروف بغير نقط وأنت اسمك ثلاثة حروف وابن السلطان كذلك. فقال له: لم لا تقول: محمود بن ممدود؟ قال المنجم: لا يقع غير هذا الاسم. فقال قطز: أنا محمود بن ممدود وأنا أكسر التتار وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه، ثم استكتمنا هذا الأمر، وأنعم على المنجم بثلاثمائة درهم وصرفه[2]".

---

[1] نهاية الأرب، جـ29، ص 479-480؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 39-40؛ العيني، عقد الجمان، جـ1، ص 255.

[2] نهاية الأرب، جـ29، ص 480-481؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 40-41.

وقال النويري أيضًا: "وحُكيَ عن المولى تاج الدين أحمد بن الاثير –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى– ما معناه: أن الملك صلاح الدين يوسف صاحب الشام – رحمه الله تعالى – لما كان على برزة[1] في أواخر سنة 657هـ / 1259م وصل إليه قُصَّادٌ من الديار المصرية بكتب تتضمن أن قطز قد تسلطن وملك الديار المصرية، وقبض على الملك المنصور بن أستاذه الملك المعز. قال القاضي تاج الدين: فطلبني السلطان –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– فقرأت عليه الكتب. فقال لي: خذ هذه الكتب وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القيمري والأمير جمال الدين بن يغمور وأوقف كلا منهما عليها.

قال: فأخذتها وخرجت من عنده، فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني[2] فسلم عليّ وقال: جاءكم بريد أو قصاد من الديار المصرية؟ فوريت له[3] وقلت: ما عندي علم بشيء من هذا. قال: قطز يتسلطن ويملك الديار المصرية ويكسر التتار. قال القاضي تاج الدين: فعجبت من كلامه وقلت له: إيشن هذا القول؟ من أين لك هذا؟

قال: والله، هذا قطز هو خوشداشي[4] كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كبير، فكنت أسّرح رأسه – على أنني كلما أخذت عنه قملة أخذ منه فلسًا أو صفعة. فلما كان بعض الأيام أخذت عنه قملًا كثيرًا وشرعت أصفعه، ثم قلت في غضون ذلك: والله ما اشتهي إلا أن الله يرزقني إمرة خمسين فارسًا، فقال لي: طيب قلبك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارسًا، فصفعته وقلت: والك[5]، أنت تعطيني إمرة؟! قال: نعم! فصفعته! فقال لي: والك إيشن يلزم لك إلا إمرة بخمسين فارس، أنا والله، أعطيك. قلت: والك كيف تعطيني؟ قال: أملك الديار المصرية.

قلت: تملك الديار المصرية؟! قال: نعم، رأيت النبي –ﷺ– في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي ﷺ لا شك فيه، فسكت وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب.

---

(1) برزة من ضواحي دمشق في غوطتها.

(2) أي المنسوب إلى بركة خان مقدم الخوارزمية.

(3) أي أجبت بتورية.

(4) أي زميلي في النشأة والخدمة عند أستاذنا الذي اشترانا وربانا معًا.

(5) أي ويلك أو ويحك.

وتقلبت به الأحوال وارتفع شأنه إلى أن صار هم المتحكم في الدولة، وما أشك أنه يملك الديار المصرية – مستقبلًا- ويكسر التتار كما أخبره النبي ﷺ في المنام.

قال القاضي تاج الدين: فلما قال لي هذا القول قلت له: والله قد وردت الأخبار أنه تسلطن في الديار المصرية. قال لي: والله هو يكسر التتار. فما مضى إلا مدة يسيرة حتى خرج وكسر التتار.

قال المولى تاج الدين – رحمه الله- فرأيت الأمير حسام الدين البركة خاني الحاكي لي – بعد ذلك- بالديار المصرية بعد كسرة التتار فسلم عليّ وقال لي: تذكر ما قلت في الوقت الفلاني؟ قلت: نعم. قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قطيا ودخلت أنا إلى الديار المصرية أعطاني إمرة خمسين كما قال – رحمه الله – لا زايد على ذلك[1]".

وقد ذكر هذه الحكاية الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه "الذيل على مرآة الزمان" وقال أيضًا: "وحكى لي الأمير عز الدين بن أبي الهيجا ما معناه: أن الأمير سيف الدين بلقاق حدثه أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي حكى له قال:

كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر ركن الدين بيبرس – رحمهم الله تعالى- في حال الصبا كثيرًا ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا مُنجمًا في بعض الطرق بالديار المصرية. فقال له الملك المظفر: أبصر نجمي، فضرب بالرمل وحسب وقال له: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار!، فشرعنا نهزأ به. ثم قال له الملك الظاهر: فأبصر نجمي، فضرب الرمل وحسب وقال: وأنت تملك الديار المصرية وغيرها، فتزايد استهزاؤنا به! ثم قالا لي: لا بد أن يُبصر نجمك. فقلت له: أبصر لي، فضرب وحسب وقال لي: وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس، ويعطيك هذا – وأشار إلى الملك الظاهر، فاتفق أن الأمر وقع كما قال وهذا من عجيب الاتفاق[2].

قال الشيخ قطب الدين اليونيني – نفع الله به-:

---

[1] نهاية الأرب، جـ 29، ص 481-483؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 41-42.؛ العيني، عقد الجمان، جـ 1، ص 255-257.

[2] نهاية الأرب، جـ 29، ص 483-484؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ 8، ص 43؛ العيني، عقد الجمان، جـ 1، ص 257-258.

"وكان السلطان الملك المظفر بطلًا شجاعًا مقدامًا حتى قيل أنه لم يركب الفرس قبله من الترك أفرس ولا أشجع منه، ولم يكن يوصف بشح ولا كرم، بل كان متوسطًا، وهو أول من اجتزأ على التتار وكسرهم بعد خوارزم شاه كسرة عظيمة جبر بها الإسلام[1]".

ومن الروايات التي قالها المؤرخ اليونيني أيضًا:

"ومما حكى لي عنه: أنه قُتِلَ في يوم المصاف -أي المعركة- جواده بعين جالوت، ولم يصادف في تلك الساعة أحد من أوشاقيته[2] الذين معهم جنائبه[3]، فبقى راجلًا، ورآه بعض الأمراء الشجعان فترجل عن حصانه وقدمه له يركبه فامتنع وقال له ما معناه: ما كنت لآخذ حصانك في هذا الوقت وأمنع المسلمين الانتفاع بك وأعرضك للقتل وحلف عليه أن يركب فرسه، فامتثل أمره وركب، ووافاه الأوشاقية بالجنانب فركب جنيبًا.

فلامه بعض خواصه على ذلك وقال: لو صادفك –والعياذ بالله- بعض المغل وأنت على الأرض راجلًا كنت رحت وراح الإسلام، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة – إن شاء الله تعالى- وأما الإسلام فما كان الله عز وجل ليضيعه، فقد مات الملك الصالح وقتل ولده الملك المعظم والأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العساكر ونصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره – يشير إلى نوبة المنصورة[4].

قال: ولما قدم إلى دمشق بعد الكسرة – أي كسرة التتار – أجرى الناس كافة على ما كانوا عليه إلى آخر الأيام الناصرية في رواتبهم ومقرراتهم وإطلاقاتهم ولم يتعرض إلى مال أحد ولا إلى ملكه، ثم توجه بعد تقرير قواعد الشام فرزقه الله الشهادة فقتل مظلومًا رحمه الله تعالى[5].

وأجمل ابن تغري بردي صفات قطز فقال: "وكان الملك المظفر سلطانًا بطلًا شجاعًا مقدامًا حازمًا سيوسًا عاقلًا دينًا خيرًا صاحب رأي وتدبير، ومعرفة بالحروب والأحكام، وكان شابًا أشقر كبير اللحية، لطيف الذات، حلو الكلام، وبالجملة – فهو أحد من قام بنصرة الاسلام واستنقاذ البلاد الشامية من العدو[6]".

---

(1) نهاية الأرب، جـ29، ص 484؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص 41.

(2) الأوشاقية هم سياس الخيل.

(3) الجنائب هي خيول السلطان.

(4) نهاية الأرب، جـ29، ص 485.

(5) نهاية الأرب، جـ29، ص 486.

(6) المنهل الصافي، جـ9، ص 77.

وخلاصة القول في شخصية السلطان الملك المظفر أنه كان الأنموذج الذي سار على خطاه باقي سلاطين المماليك، فهو يجمع بين الخير والشر والطيبة والشراسة في وقت واحد، وهو مخلص لدولته واستقلالها، بطلًا شهمًا مدافعًا عن دينه وأرضه، إلا أن يده انغمست بالدماء، وهكذا كان معظم سلاطين المماليك.

وقد اندثرت المدرسة المعزية التي أنشأها المعز أيبك سنة 654هـ/ 1256م وقال عنها ابن دقماق: "المدرسة المعزية عمّرها السلطان الملك المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي أول ملوك الدولة التركية بعد بني أيوب، وكان متولى عمارتها الصاحب برهان الدين السنجاري وهو الخضر بن الحسن إلى أن توفى، فدرس بها الفقيه شمس الدين الجزري ثم عزل، ودرس بها الفقيه نجم الدين أحمد بن الرفعة، ولم يزل إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى فدرس بها الفقيه شمس الدين الجزري المشهور بالخطيب وكان يومئذ خطيب الجامع الطولوني، ولم يزل بها إلى توفى فدرس بها قاضي القضاة جمال الدين الرزعي[1]". ثم ذكر ابن دقماق أوقافها فقال: "الحمامين المتجاورين في صف وكالة الملك المشهورين بحمامي السلطان والربع المشهور بربع الطاووس الذي في بعض سفله الآن دار القنود وقاعات دار الوكالة والربع علوها، المتوصل إلى ذلك من الباب الكبير المجاور لباب الحمام المذكور وعلو ظهر المطابخ السلطانية والنصف والربع ثمانية عشر سهمًا من الأرض التي الآن أمام سور المدرسة المذكورة القبلي، يفصل بين ذلك وبين المدرسة المذكورة الطريق، وشرط نظرها لمدرسها[2]".

وقال عنها ابن تغري بردي: "وكان للمعز بر ومعروف وعمائر، من ذلك: المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافًا، ودهليز المدرسة متسع طويل مفرط، قيل: إن بعض الأكابر دخل إلى هذه المدرسة المذكورة فرآها صغيرة بالنسبة إلى دهليزها، فقال: هذه المدرسة مجاز بلا حقيقة!، وكان مدرسها القاضي برهان الدين الخضر ابن الحسن السنجاري إلى أن مات[3]".

ولم يذكرها المقريزي في عرضه للمدارس وإنما ذكرها عرضًا عندما تكلم على ساحل النيل بمدينة مصر ووصل إلى موضع الجامع الجديد الذي أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون

---

(1) الانتصار، جـ4، ص 92-93.

(2) الانتصار، جـ4، ص 93.

(3) النجوم الزاهرة، جـ7، ص 14.

فقال: "وشرع خواص السلطان في العمارة على شاطئ هذا البحر.. من قبالة الجامع الجديد إلى المدرسة المعزية[1]". ثم لما تكلم على المنشأة ووصل إلى جسر الأفرم قال: "إن هذا الجسر في طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار، وكان الجسر مطلًا على النيل دائمًا[2]".

وقد حقق المرحوم العلامة محمد بك رمزي مكان هذه المدرسة وذكر أن مكانها اليوم جامع عابدي بك أمير اللواء الشريف بمصر الشهير بجامع الشيخ رويش المطل على كورنيش النيل بمصر القديمة، وقد أنشأه سنة 1071هـ / 1660م وأشتهر باسم الشيخ رويش لمجاورته لضريحه الكائن بحارة الخوخة بالجهة الشرقية القبلية من الجامع المذكور[3]، وهو مسجل برقم 524 في عداد الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة.

سلطنة الظاهرة بيبرس

بعد أن قتل الأمراء الملك المظفر قطز عادوا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، وكان الأمير أقطاي المستعرب الأتابك مقيمًا به ولم يشترك معهم في تلك المؤمرة، وعندما عرف قتل السلطان قال لهم: من قتله منكم؟ فقال الأمير بيبرس: أنا قتلته. فقال الأمير أقطاي: اجلس في مرتبة السلطنة مكانه، فجلس، فبايعه أقطاي وحلف له ثم علاء الدين بلبان الرشيدي والأمير بدر الدين بيسري والأمير سيف الدين قلاوون والأمير بيليك الخازندار ثم بقية الأمراء على طبقاتهم[4].

وعاد بيبرس والأمراء إلى القاهرة ودخلوا قلعة الجبل فتسلمها بيبرس إيذانًا بسلطنته ليلة الاثنين 17 ذي القعدة 658هـ/ 25 أكتوبر 1260م وتلقب الظاهر بعدما قيل أنه تلقب أولًا بالقاهر، وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز والناس في فرح وسرور بالانتصار على التتر، فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس: "ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس"، فغم الناس ذلك وخافوا من عودة المماليك

---

(1) الخطط، تحقيق أيمن فؤاد، مج 2، ص 162.

(2) الخطط، مج 2، ص 165.

(3) تعليق محمد رمزي على النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 14.

(4) أبو الفدا، المختصر، جـ 3، ص 348؛ المقريزي، السلوك، جـ 1، ص 436.

البحرية لسوء أخلاقهم وجورهم، ولكن الظاهر أبطل كل ما أحدثه قطز من ضرائب فسر الناس لذلك[1].

[1] السلوك، جـ 1، ص 437.